الفصل الثانى

أدب البحر فى الشعر الجاهلى

رسم الشعر الجاهلى الملامح الأولى لأدب البحر عند العرب . وقدم الصور والتشبيهات الواقعية المستمدة من عالم البحر ، والدالة على ركوب العرب للبحر ، ومعرفتهم بعالمه الجميل المتقلب .

فالشعر الجاهلى هو فن العرب الأول ، ومرآة الحياة العربية فى الجاهلية ، وهو أهم الوثائق الأدبية والفكرية التى وصلتنا من العصر الجاهلى . وقد قام الشعر الجاهلى بدور الفكر والفن معاً ، لأن عرب الجاهلية ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب البدائية ، لم يعرفوا الأعمال الفكرية والعقلية المجردة ، ولم يكن لهم فنهم التشكيلى أيضًا . بل أبدعوا الشعر الغنائى الحافل بالتصوير الواقعى والصور الحسية المعبرة عن حياة الشاعر وبيئته الطبيعية والإنسانية . من هنا حل الشعر الجاهلى محل الفن التشكيلى المفتقد ، فى تصوير الطبيعة ، « لأن الطبيعة والإنسان يتصديان للشعراء والمصورين بذات الطواعية . ولقد نشأت بالفعل حضارات جهلت أو كادت تجهل الفنون التشكيلية . وقد تفيدنا دراسة تلك الآداب – كالأدب اليهودى والعربى – التى لا عهد لها بالفنون التى صورت الشكل الإنسانى »[1] .

وإذا كانت الجاهلية قد عرفت النثر ، فإنه أقل أهمية من الشعر ، لضآلة ما وصلنا منه مرويًّا بدون تدوين ، مع عدم قابلية النثر للرواية والحفظ بالقياس إلى سهولة حفظ الشعر ، مما جعل ما وصلنا من النثر موضع شك . على حين نقل الرواة الشعر الجاهلى ورددته الأجيال ، حتى إذا جاء عصر التدوين تم التحقيق الدقيق الصارم لكثير من عيون الشعر الجاهلى وقصائده ، بالرجوع إلى الوادى والرواة والقبائل . لذا عد الشعر الجاهلى أوثق المصادر الأدبية والفكرية الدالة على حياة العرب فى الجاهلية ، وذلك نظرًا لما حفل به الشعر الجاهلى من تصوير واقعى أمين للحياة والناس والطبيعة والحيوان والأشياء فى العصر الجاهلى . فهو وثيقة دقيقة للشاعر

(١) لويس هورتيك ، الأدب والفن ، ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعى ، ص ٣٧ .

الجاهلى وبيئته ، كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « العصر الجاهلى » ، خاصة وأن الشاعر الجاهلى « لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أمينا ، يبقى فيه على صورها الحقيقية بدون أن يدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمس جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها وأوديتها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك كلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات وشخصات »[٢] .

ومن هنا تأتى أهمية الصور الشعرية الواقعية ، التى تضمنها الشعر الجاهلى ، فى تصويرها الصادق لحياة عرب الجاهلية . وأصبح الشعر الجاهلى هو المصدر الرئيسى لمعرفة العرب القدماء ، نظرًا لافتقار تاريخ العرب القديم إلى معلومات مؤكدة عن حياتهم ومعارفهم وتطورهم ، إلا من بعض المعلومات المستقاة مؤخراً من الآثار القديمة بالجنوب . بعد أن طمست الحروب الخارجية والداخلية ومعارك الأخذ بالثأر ، الكثير من وقائع ووثائق تاريخ العرب الجاهلى ، تلك الحروب التى استغرقت عشرات السنين لذا سميت بأيام العرب وأشهرها حرب البسوس وحرب داحس الغبراء وحروب اليمن مع الرومان والفرس والأحباش . وذلك بالإضافة إلى طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء وما تقتضيه من تنقل بحثًا عن الكلأ والماء والحياة الصحراوية القاسية من عواصف رملية وسيول تجتاح فى طريقها كل شىء .

لقد خرج العرب إلى البحر فى الجاهلية ، وصنعوا السفن ونقلوا عليها تجارتهم وتجارة العالم ، واكتسبوا الخبرات الملاحية ، وأقاموا الموانئ والمراسى وقدموا للإنسانية إنجازاتهم ومعارفهم البحرية ، كمعرفتهم للرياح الموسمية وصناعتهم للسفن بربط الحبال وبدون استخدام مسامير ، واختراعهم للشراع المثلث الذى مكن السفن من الإقلاع فى مواجهة الرياح ، كما ذكرنا فى الفصل السابق . غير أن الوثائق والمصادر العربية الدالة على هذا كله لم تصلنا من تراث العصر الجاهلى ، ولم يصلنا منها سوى قصائد الشعر الجاهلى أهم المصادر الأدبية والجغرافية فى عالم البحر وأدب البحر .

ويصف كراتشكوفسكى الشعر الجاهلى بأنه « المجال الوحيد الذى خلف فيه العرب مادة

(٢) الدكتور شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ٢١٩ .

جغرافية وافرة » .. وقال إن القسم الأول من القصيدة الجاهلية » المعروف بالنسيب كثيراً ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين .. » وإن الشعر الجاهلى » حفظ لنا مادة لا تنضب من هذا القبيل » وإن هذه المادة كانت « القاعدة المتينة » التى قامت عليها كتب الجغرافيين العرب فى القرن التاسع ، والتى مهدت بدورها لظهور الأدب الجغرافى العربى . غير أن كراتشكوفسكى يستدرك قائلا بأن المدارك الجغرافية عند عرب الجاهلية « لم تتجاوز جزيرتهم إلا نادرا ، وقلما وجدت لديهم أفكاراً عامة فى الجغرافيا ، ويرد بالطبع فى شعرهم ذكر الأنهار مثل دجلة والفرات والأقطار مثل العراق والشام ، والمدن مثل بعلبك ، ولكن نادرًا ما ارتبطت بهذه الأسماء أية تجارب واقعية »[٣] . وهنا نختلف مع هذه الآراء الأخيرة لكراتشكوفسكى ، التى تتردد كثيرًا عند غيره من العلماء الأجانب ، كأخطاء شائعة عن انزواء العرب داخل جزيرتهم واقتصارهم على عالمهم الصحراوى ، وهى آراء غير صحيحة . لأن أدب البحر فى الشعر الجاهلى يؤكد تجاوز العرب لجزيرتهم إلى عالم البحر ، كما أن الصور الشعرية الدقيقة والتشبيهات والاستعارات ، المستمدة من عالم البحر ، تدل على معرفة العرب القدماء الواقعية بالبحر والظواهر البحرية والسفن . وهذا هو ما نستهدفه بدراسة أدب البحر فى الشعر الجاهلى ، فى هذا الفصل .

حدد الجاحظ ، فى كتابه « الحيوان » ، تاريخا تقريبيًّا لبداية الشعر الجاهلى بأنه يتراوح بين مائة وخمسين ومائتى عام قبل ظهور الإسلام . وهذا هو التاريخ الثابت فى الشعر الجاهلى للعرب والحياة العربية فى الجاهلية ، وهو البداية المتفق عليها تقريبًا بين العلماء والباحثين لاكتمال القصيدة الجاهلية وسيادة اللغة العربية الواحدة ، لغة قريش . فى حين يرجع بروكلمان[٤] بتاريخ بداية الشعر الجاهلى إلى مائة عام فحسب قبل ميلاد النبى محمد عليه الصلاة والسلام . أما ما قبل ذلك فقد طوته رمال الصحراء مع تقلبات الحياة البدوية ومعاركها . ومن هنا فإن المائة والخمسين سنة السابقة على ظهور الإسلام هى الحقبة المؤكدة والصالحة للبحث فى الحياة العربية والشعر العربى . ونحن لا نؤرخ هنا للشعر الجاهلى ، ولكننا بصدد تحديد الحقبة الزمنية والتاريخية المعاصرة للشعر الجاهلى فى أدب البحر .

وقد شاب تاريخ تدوين الشعر الجاهلى الكثير من الشكوك حول انتحال الرواة له بسبب

---

(٣) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح هاشم ، حـ ١ ، ص ٤٣ و ٤٤ .

(٤) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، حـ ١ ، ص ٥٥ .

تدوينه بعد الإسلام ، فى العصرين الأموى والعباسى ، وانتقاله مع الرواة بالرواية الشفاهية وتداوله بين القبائل وعبر الأجيال . وهو تشكك صحيح فى معظمه بسبب طول الحقبة الزمنية الفاصلة بين قول الشعر الجاهلى وتدوينه . غير أن الدقة الشديدة التى اتبعها مدونو الشعر الجاهلى ورجوعهم إلى البادية وإلى قبائل الجزيرة العربية ، للتأكد من صحة الأعمال الرئيسية المحققة فى الشعر الجاهلى ، واهتمام أبو بكر وعمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، بالروايات المؤكدة للشعر الجاهلى كمصدر رئيسى موثوق به « لمعرفة الأنساب . إذ كانت تلعب دورًا مهما فى رواتب الجند الفاتحين وفى مراكز القبائل بالمدن الجديدة التى خططوها مثل البصرة والكوفة »[٥] هذا كله لا يجعلنا نذهب مع مفكرنا العظيم الراحل الدكتور طه حسين ، إلى المدى الذى وصل إليه فى كتابه « فى الأدب الجاهلى »[٦] ، من رفضه المطلق لصلاحية الشعر الجاهلى لتمثيل الحياة والجاهلية . فإن الإضافة والحذف ونسبة بعض قصائد شاعر جاهلى لشاعر آخر ، كل هذه مسائل جزئية واردة ، ولكنها لا تمس الشعر الجاهلى ككل ولا تنفى صلاحيته كمصدر أساسى لمعرفة الحياة العربية فى الجاهلية . كما أن كتاب الشعر الجاهلى ومؤرخيه ونقاده ، من العرب والأجانب ، اتفقوا على مصادر مؤكدة للشعر الجاهلى ، واستبعدوا الكثير من الشعر الجاهلى المشكوك فى صحته . ومن أهم هذه المصادر المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، وهى التى اعتمدنا عليها ، مع بعض الدواوين الجاهلية ، كمصادر لبحثنا عن أدب البحر فى الشعر الجاهلى . ونكتفى بهذا القدر فى تلك القضية الكبيرة حتى لا يجرنا الاستطراد بعيدًا عن مجال بحثنا .

تبدأ القصيدة الجاهلية بالوقوف على الأطلال والحديث عن الحبيبة الراحلة ، وهو القسم المعروف بالنسيب أجمل أقسام القصيدة الجاهلية وأثراها بالصور والتشبيهات ، ثم يتحرك الشاعر بناقته وينطلق إلى الصحراء ليصف معالم رحلته وينتقل منها إلى وصف ناقته أو فرسه ويشبهها بالحيوان الوحشى وبالسفينة أيضًا . وفى هذين القسمين ترد صور عالم البحر . ثم يخلص الشاعر إلى موضوع القصيدة الذى يأتى غالبًا فى الأبيات الأخيرة منها ، ويدور حول المدح أو الرثاء أو الهجاء أو الفخر أو الاعتذار أو العتاب ..

هكذا تصور القصيدة الجاهلية رحلة الشاعر الجاهلى وحركته الدائمة النابعة من طبيعة

---

(٥) الدكتور شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ١٤٤ و ١٤٥ .

(٦) الدكتور طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ، ص ٦٥ و ٧٠ و ٧١ .

الحياة العربية المتحركة والمتنقلة فى الصحراء أو خارجها طلباً للرزق والماء والكلأ ، أو مشاركة فى الحروب والمعارك الثأرية . ويجمع النقاد على أن القسم الأول من القصيدة الجاهلية ، الخاص بالأطلال والنسيب والحبيبة . هو أهم أقسام القصيدة الجاهلية وأكثرها ثراء وتعبيرًا وثباتًا ، يليه القسم الخاص براحلة الشاعر الجاهلى ، سواء أكانت ناقة أم جملا أم فرساً . وتظهر صور أدب البحر ، فى متابعة الشاعر رحلة حبيبته مع الظعائن ، أو النساء المسافرات على الهوادج ، نجدها أيضاً فى وصف الشاعر الجاهلى لناقته وتشبيهه لها بالحيوان الوحشى وبالسفينة وأمواج البحر أيضًا . وقد لاحظ الباحث وهب رومية ، فى كتابه « الرحلة فى القصيدة الجاهلية » ، أنه « تظهر صورة النخيل بامتداد قامته وتعدد ألوانه ، وصورة السفن باضطرابها وهى تغالب الموج والريح بحظ عظيم من فن الشعراء ، فلا نكاد نقرأ قصيدة فى الظعن – إلا فى النادر القليل – بدون أن نلتقى بصورة منهما أو بكلتيهما معًا ، وعلة ذلك صلتهما بحياة أولئك القوم ، وكونهما جزءًا أصيلا من التراث الشعرى ورثه المتأخرون من شعراء العصر حين ورثوا هذا التراث »[٧] أى أن ظهور النخيل والسفن وأمواج البحر ورياحه ، وما يتصف به هذا الظهور من دوام وثبات ، فى القصيدة الجاهلية ، يدل على أنها مكونات أساسية فى حياة عرب الجاهلية عرفوها وتمرسوا بها . وذلك نظرا لما تتصف به الصور والتشبيهات فى القصيدة الجاهلية من واقعية وصدق وأمانة فى النقل من الواقع . فالحياة الواقعية ومظاهرها الطبيعية كانت تفرض صورها بقوة على الشاعر الجاهلى وتتجلى فى قصائده .

المعلقات هى أهم قصائد الشعر الجاهلى وأطولها ، وقد سميت بالمعلقات لأنها نفيسة عظيمة القيمة ، وليس بسبب تعليقها على الكعبة ، كما شاع خطأ . وقد اختلفت الآراء حول عددها وحول شعرائها أيضاً ، بسبب من اختلاف الرواة وتغليب مشاعرهم وانتماءاتهم القبلية ، فعددها عندهم يتراوح بين خمس قصائد وعشر . يقول بروكلمان[٨] ، إن خمسًا منها محل اتفاق الجميع ، وهى معلقات : امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم . وأنه يمكن إدراج المعلقتين السادسة والسابعة لعنترة والحارث بن حلزة لموافقة أكثر الرواة عليهما ، فى حين وضع المفضل مكانهما قصيدتى النابغة والأعشى . ويروى الدكتور شوقى

(٧) وهب رومية ، الرحلة فى القصيدة الجاهلية ، ص ٣٣ .

(٨) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، حـ ١ ، ص ٦٧ .

ضيف[٩] ، أن التبريزى جمع فى شرحه للمعلقات بين الروايتين . أما النحاس أحد شراح المعلقات ، فيتفق مع القائلين بأن عددها سبع معلقات وأضاف إليها قصيدتى الأعشى والنابغة ، وعنونها بالقصائد التسع المشهورات . ولا خلاف على صحة هذه القصائد الطويلة أو على أهميتها ، ولكن الخلاف بين الرواة والشراح يدور حول ترتيب أهميتها .

وقد اعتمدنا ، فى هذا الفصل ، على كتاب أبى جعفر أحمد بن محمد النحاس (المتوفى سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م) ، وعنوانه « شرح القصائد التسع المشهورات ، طبعة بغداد بتحقيق أحمد خطاب» ، فهو مصدرنا فى المعلقات . وسننتق من المعلقات وسواها من عيون الشعر الجاهلى ما يخص دراستنا عن أدب البحر فى الشعر الجاهلى . ونبدأ بمعلقة طرفة بن العبد وديوانه ، الذى أعده شاعر البحر فى العصر الجاهلى ، وكذلك عده العرب القدماء أشعر شعراء الجاهلية ، وأجمع ابن سلام وابن قتيبة وابن رشيق على الإشادة بمعلقته .

أما لماذا أصف طرفة بن العبد بأنه شاعر البحر فى العصر الجاهلى ، فلأن شعره غنى بلوحات البحر وصوره أكثر من شعر سواه ، كما أنه ولد بالبحرين (سنة ٥٦٤م تقريبًا) فتفتحت عيناه على عالم البحر والسفن ، وكان مسكنه ومساكن قومه تطل على مياه الخليج . وهو شاعر شاب مات قتيلا فى ريعان الشباب ، فى سن السادسة والعشرين[١٠]. وتقع معلقة طرفة بن العبد فى مائة وأربعة بيتًا . أما ظروف قولها ، فهى ظروف إفلاس طرفة ، بعد أن أنفق كل ماله فى اللهو والخمر وأضاع إبل أخيه ، حتى أنكرته عشيرته ففارقها ولجأ ، مع خاله الشاعر الملتمس إلى ملك الحيرة .

---

(٩) الدكتور شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ١٧٦ .

(١٠) هناك روايات متعددة عن مصرع طرفة بن العبد . فيقول كرم البستانى ، فى مقدمة ديوان طرفة ، إنه كان يتيمًا مسرفًا ماجنًا ، وكان ، أيضًا ، شاعرا مبدعًا جميل العبارة والصورة . وأنه لما أنفق كل ما يملكه من إبل ، اتجه ، هو وخاله الشاعر الملتمس ، إلى عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، الذى كان يقصده الشعراء وينشدونه الشعر ، فأعجب ملك الحيرة بشعر طرفة وضمه مع خاله إلى مجلسه . غير أن طرفة لم يلبث أن استخدم شعره فى التشبيب بأخت الملك وفى السخرية منه ومن زوجها . فدبر الملك لقتله هو وخاله الملتمس ، وبعث مع كل منهما برسالة إلى أبو كرب بن الحرث والى البحرين وطلب منه قتلهما . ويقال إن الملتمس قرأ رسالته بالطريق وطوح بها فى النهر وغير طريقه إلى الشام . أما طرفة فإنه أصر على توصيل رسالته إلى والى البحرين ، ورفض أيضاً عرض والى البحرين بالهرب وصمم على البقاء بالسجن لأنه برىء . فرفض والى البحرين بدوره أن ينفذ أمر الملك بقتله وطلب من الملك إيفاد رجل آخر ينفذه . فعين ملك الحيرة والياً آخر على البحرين يدعى عبد هند ، نفذ أمر القتل فى طرفة وفى الوالى السابق أيضًا . وثمة روايات أخرى ، عن مقتل طرفة ، تختلف فى التفاصيل وتتفق فى مصرع طرفة بن العبد . ويرى د . طه حسين ، فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » أن قصة مصرع طرفة أسطورة ترددت فى « طبقات ابن سلام » و « أغانى الجاحظ » ص ٢٢٦ .

يستهل طرفة بن العبد معلقته بالوقوف على الأطلال ، كما يحدث فى القصيدة الجاهلية ، ويكتفى ببيتين ، الأول لتصوير أطلال الحبيبة (خولة) وآثارها الخربة بعد رحيلها وتشبيه لمعان الأطلال ، فى اختلاطها بأرض الموقع المليء بالأحجار ، بلمعان الوشم فى ظاهر اليد . وفى البيت الثانى يذكر وقوفه حزينًا مع أصحابه وهم يركبون مطاياهم ، ويواسونه فى محنته ويشدون من أزره ، وننقل هنا هذين البيتين لأنهما يأتيان فى مطلع القصيدة ، وتليهما مباشرة الأبيات الغنية بصور البحر .

١ - لِخَولةَ أطلال بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تلوح كباقى الوَشْمِ فى ظاهر اليد

٢ - وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسىً وتجلد

ثم تتدفق صور البحر والسفن فى أبيات الحب ، وفى تصوير موكب رحيل الحبيبة وتشبيهه بصور واقعية منقولة من عالم البحر ، فى الأبيات التالية :

٣ - كأن حُدُوَج المالِكيَّةِ غُـدوةً خلايا سَفينٍ بالنَّواصف من دَدِ

٤ - عَدَوْلِيَّةٌ أو من سفين ابن يامِنٍ يجور بها الملاح طورا ويهتدى

٥ - يَشُق حبَابَ الماء حَيزومُها بها كما قَسَمَ التُّربَ المفَايِلُ باليَدِ[١١]

إن الصور هنا مركبة تجمع بين التصوير والتصور ، بين الواقعى والمتخيل ، وتمزج بين الواقع والخيال ، وتأتى فى ألفاظ يصعب اليوم على القارئ العربى العام استساغتها . ولكن إذا حللناها ويسطناها بدت صور القصيدة جميلة وثرية . وأفصحت عن خبرة الشاعر الواقعية بعالم البحر ومياهه وسفنه ، ولرأينا كيف يوظّفها فى تصوير موكب الحبيبة وهوادجه النسائية المحمولة على الإبل . أما الحبيبة فهى خولة من بنى مالك بن سعد بن قيس إحدى قبائل كلب ، لذا قيل إنها خولة الكلبية ، كما روى النحاس نقلا عن ابن الأنبارى[١٢] ، وسميت فى هذه الأبيات بالمالكية نسبة إلى قومها بنى مالك ، فالمالكية تنصرف إلى الحبيبة وإلى القبيلة معًا فى هذه الأبيات . أما الحدوج فهى جمع حدج ، والحدج مركب من مراكب النساء . وتعنى

---

(١١) النحاس ، شرح القصائد التسع المشهورات ، حـ ١ (ص ٢٠٧- ٢١٢) ، والمعلقة بديوان طرفة بن العبد ، (١٩ و ٢٠) .

(١٢) المصدر السابق ص ٢١١ .

الخلايا السفن الكبيرة ، جمع خلية ، أى سفينة كبيرة أو عظيمة . والسفين جمع سفينة أيضاً . هذه كلها أنواع مختلفة من السفن عرفها الشاعر العربى طرفة بن العبد وجمعها فى بيت واحد من أبيات معلقته ، هو البيت الثالث . ثم مزج بينها وبين صور الصحراء البرية . فالنواصف -- « جمع ناصفة » ، أماكن فسيحة فى الأودية تستعمل كطرق صحراوية . أما « دد » فيقول النحاس إنها تعنى « مكان ترسو فيه السفن » ، فى حين يذكر « الزوزنى » فى شرحه للمعلقة بالدايوان أنه يعنى واد بالنواصف[١٣] .

هكذا تتركب صور البيت الثالث وتتصل بالبيتين السابقين من المعلقة . فبعد أن وقف الشاعر مع أصحابه بأطلال الحبيبة ركوبا على إبلهم ، تحرك ليتابع موكب الحبيبة ، على الهوادج المحملة بنساء قبيلة المالكية ، المنطلق فى أودية الصحراء قاصدًا مرساه أو واديه ومستقره الجديد . هذه الهوادج النسائية صوَّر الشاعر رحيلها فى صورة بحرية بديعة ، فشبهها بالحدوج أو المراكب النسائية ، وتخيلها فى انطلاقها كالسفن العظيمة قاصدة مرساها . وكأن مسيرة الهوادج فى موكب الحبيبة الراحل قاصدًا واديا جديدا ، كمسيرة السفن النسائية الكبيرة عندما تتجه إلى مرساها . فالصور كلها بصرية وواقعية منقولة نقلا أميناً من الواقع . ويأتى فن الشاعر ويركّب الصور فى لوحة شعرية جميلة ، تجمع بين صور البحر وصور الصحراء وتمزج بينها فى مركب شعرى جديد .

فى البيت الرابع يصف الشاعر رحلة الحبيبة وموكبها عبر الطريق الصحراوى غير المستوى ويشبهه بقيادة الملاح للسفن فوق الطرق البحرية ، فكلاهما يعلو ويهبط ويمضى فى طريقه إلى الأمام وينحرف يمنة ويسرة . وهكذا تمضى الطرق البحرية فى غير استقامة واستواء بل تتلوى فى مواجهة الرياح والأمواج والمعوقات الملاحية . وتوجد عدة شروح لهذا البيت . فمنها من يقول بأن « ابن يامن » المذكور فى البيت هو أحد أبناء قبيلة « عدول » إحدى قبائل البحرين ، وبذلك يقود « ابن يامن » الإبل من هذه القبيلة كما يقود الملاح سفنه فيمضى بها بين الاستواء وبين العدول والميل عن الطريق المستقيم . هذا تفسير الزوزنى الملحق بالمعلقة فى الديوان . أما النحاس فيشرح البيت على نحو يقربه أكثر من أدب البحر ، فينقل النحاس عن الأصمعى قوله بأن « عدولية من نعت السفن وهى منسوبة إلى قوم كانوا ينزلون هجر » ، وأن « ابن يامن من أهل هجر أيضًا » ، وأنه « رجل ملاح » تارة ، و « رجل تاجر من أهل

(١٣) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٢٠ .

البحرين » تارة أخرى[١٤] . وتدلنا هذه الشروح كلها على خبرة عرب الجاهلية بالبحر والسفن والطرق الملاحية كما صورها الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد .

ويمضى الشاعر ، فى البيت الخامس من معلقته ، ليصور حركة السفينة فى الماء عندما تشق بصدرها (حيزومها) أمواج البحر وزبده (حباب الماء) ، ويشبهها بشق التراب باليد فى « المقابل » . وهى لعبة عربية قديمة للمراهنة يخبئ فيها اللاعب خبيئًا فى التراب أو الرمل ، ثم يقسمه إلى قسمين ، ومن يعثر على الخبىء يكون هو الفائز الرابح .

هكذا تجمع هذه الأبيات ، من معلقة طرفة بن العبد ، بين الصور الواقعية المنقولة من عالم البحر ومثيلاتها المأخوذة من دنيا الصحراء . فتؤكد بجلاء تمرس عرب الجاهلية بالبحر وأمواجه وسفنه ، وإبداعهم لأدب البحر فى الشعر الجاهلى .

وإذا كان الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد قد صوّر البحر فى أبيات النسيب أو الحب فى معلقته ، أهم أقسام قصيدته ، فإنه يذكر البحر أيضاً فى القسم الخاص بالناقة ، وهذان القسمان من المكونات الأساسية للقصيدة الجاهلية . فينشد قائلا فى البيت الثامن والعشرين من معلقته :

٢٨ – وأتْلَعُ نَهّاضٌ إذا صَعّدَتْ به كسُكّانِ بُوصىٍّ بدجْلَةَ مُصْعِد

فهو يشبه عنق الناقة الطويل (أتلع) الصاعد سريع الحركة (النهاض) بدفة (السكان) السفينة (بوصى) وهى ترتفع وتنخفض فى جريها بالماء . ويقول النحاس[١٥] إن السكان فى هذا البيت يعنى النوتى أو الملاح ، وإن دجلة هنا لا يقصد بها نهر دجلة بل يقصد « معرفة » وإن الملاح « مصعد لأنه يعالج الموج » .

فى هذا البيت ، يزداد الشاعر الجاهلى اقترابًا من التصوير الداخلى للسفينة والملاحة البحرية ورجال البحر . بعد أن صورها فى انطلاقها البعيد متجهة إلى مرساها فى الأبيات السابقة . ويقدم إضافة جديدة لأدب البحر ودلالة جديدة على خبرة العرب الواقعية بالبحر وأمواجه وطرقه الملاحية ، وبالسفن وأنواعها وأهلها وأجزائها وتحركاتها عبر الطرق الملاحية . فلو لم تكن صور البحر الواقعية تملأ حياة العرب فى العصر الجاهلى لما وجد فيها الشاعر الجاهلى نبعًا دائمًا يستمد منه صوره وتشبيهاته ، ولاكتفى بعالمه الصحراوى وصوره البرية . ولعل هذا يؤكد ما

(١٤) النحاس ، شرح القصائد التسع المشهورات ، ص ٢١٢ .

(١٥) النحاس ، شرح القصائد التسع المشهورات ، ص ٢٣٨ .

ذكرناه من قبل عن خبرة طرفة بن العبد بعالم البحر وأنه يعد بحق أديب البحر فى الشعر الجاهلى .

وتتناثر صور البحر ، والأمواج والزبد والأنهار والسفن ، فى بعض أبيات المعلقات الأخرى ، كهذه الأبيات من معلقة امرئ القيس :

٤٤ – وليل كموج البحر أرخى سُدُولَه عليَّ بأنواع الهموم ليبتلى

٤٥ – فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

٤٦ – ألا أيها الليل الطويل ألا انجَلى بصُبْحٍ وما الإصباحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[١٦]

ومع أن الصور والتشبيهات فى هذه الأبيات تستهدف التعبير عن نفسية الشاعر وتصور ثقل وطأة الهموم على صدره وقلبه ، إلا أنها صور واقعية فى جانبها الخاص بالبحر ، لأنها تشبه ظلام الليل بظلام موج البحر الكثيف فى الليل ، فإذا أضفنا إلى هذه الصورة لموج البحر فى الظلام ، صوت الموج العنيف وسيطرة الظلام والسواد على البحر على امتداد البصر ، لتبين لنا ثراء هذه الصورة الواقعية فى التعبير عن تنوع هموم الشاعر وقسوتها وكثافتها وشموليتها .

وتحتوى معلقة النابغة الذبيانى على أبيات يمدح بها النعمان ويشبه فيها كرمه بنهر الفرات ، وقد حظيت هذه الأبيات باهتمام كبار نقادنا المحدثين ورأوا صورها أقرب إلى اللوحة التشكيلية أو اللوحة الفنية[١٧] عن الأمواج والسفينة والملاح .

وهذه هى الأبيات الواردة ضمن معلقة النابغة الذبيانى :

٤٤ – فما الفراتُ إذا جاشَتْ غَوارِبُه تَرمى أواذِيُّه العِبْرين بالزبَدِ

٤٥ – يمدُّه كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيه حُطام من اليَنبوتِ والخَضَدِ

٤٦ – يَظَلُّ من خَوفِه المَلاَّحُ مُعْتَصِمًا بالخيزرَانة بعد الأَين والنَّجَدِ

٤٧ – يوما بأطيَبَ منه سَيْبَ نافِلَةٍ ولا يحولُ عَطاءُ اليوم دُونَ غَدِ[١٨]

---

(١٦) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(١٧) الدكتور شكرى فيصل ، قراءة جديدة لمعلقة النابغة ، مجلة المعرفة (السورية) العدد ١٣٧ ، تموز ١٩٧٣ ، ص ٤٨ – ٧٢ . والدكتور يوسف خليف ، « الشعر الجاهلى نشأته وتطوره » ، مجلة عالم الفكر – المجلد الرابع – العدد الرابع ، ص ١٦١ – ١٩٤ .

(١٨) النحاس ، شرح القصائد التسع المشهورات ، (٧٦٣ – ٧٦٥) .

ومع أن الصور مأخوذة من صور الملاحة النهرية فى نهر الفرات ، إلا أنها فى رأيى أقرب إلى الصور البحرية ، ويبدو لى أنها مركبة قصد بها النابغة الجمع بين النعمان والفرات بمائه العذب ونقل إليه الصور من البحر . فمياه البحر هى التى تعلو مع أمواجه حتى تغمر الشاطئ بالزبد ، أما مياه النهر فلا تعرف الأمواج العالية ولا الزبد كما يقول النابغة فى البيت الأول (٤٤) . أما الصور فى البيت الثانى (٤٥) فتصور روافد النهر تحمل إليه من كل واد حطام النباتات وركام الأشياء وتزيد من صخبه . وفى البيت الثالث (٤٦) يصور الشاعر رعب الملاح وتشبثه بمقود شراعه بعد أن غيره العرق طوال فترة عصيبة من الكرب . وفى البيت الأخير (٤٧) يجىء تشبيه النعمان بفيضان الفرات ، فعطاء اليوم الزائد (السيب : العطاء والنافلة : الزيادة) لا يحول دون عطاء الغد .

هذه هى بعض النماذج لأدب البحر فى المعلقات ، فلنر ماذا تضمنته المفضليات من أدب البحر أيضاً .

المفضليات هى مجموعة شعرية مختارة من عيون الشعر الجاهلى ، نسب اسمها إلى المفضل بن محمد الضبى الكوفى ، أحد علماء الأدب وأوثق الرواة للأخبار والأشعار العربية فى عهد الخليفة هارون الرشيد . وتضم هذه المجموعة مائة وثلاثين قصيدة منتقاة من أفضل قصائد الشعر الجاهلى « من كل شاعر خيار شعره » . ومع أنها منسوبة إلى المفضل ، إلا أن الروايات الواردة فى المصادر العربية تذكر أنه اختار نحو سبعين أو ثمانين من هذه القصائد فحسب ، وأن الأصمعى زاد عليها كما أضاف آخرون إليها بعض القصائد حتى وصلت إلى مائة وثلاثين قصيدة ، كما يؤكد ذلك محققا المفضليات فى طبعتها الحديثة أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بقولهما « إن هذه الثمانين هى أصل الكتاب عن المفضل ، لم يتجاوزها ، ثم قرئت على الأصمعى ، فأقرها وزادها قصائد ، وزاد فى بعض قصائدها أبياتاً ، واختار قصائد أُخَرَ . ثم جاء مَنْ بعد الأصمعى ، وزادوا فى القصائد – أصلها ومزيدها – أبياتا دخلت فى روايتى المفضل والأصمعى ، حتى اختلطت كلها .. [١٩] » (ص ١٣ و ١٤) وقد توافر للمفضليات عدة شراح ، أهمهم ابن الأنبارى ، أبو بكر محمد أبو القاسم ، « الذى روى المفضليات وشرحها عن أبيه ، أبى محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى » وقد اعتمد عليه أحمد محمد

(١٩) المفضليات ، ص ١٣ ، ١٤ .

شاكر وعبد السلام هارون فى طبعة دار المعارف من المفضليات وهى مصدرنا فى اختيار أبيات وقصائد أدب البحر من المفضليات .

تتيح المفضليات مدى أوسع لظهور أدب البحر بسبب كثرة قصائدها وتعدد شعرائها . فهذا بشامة بن عمرو ، المعروف ببشامة بن الغدير ، خال الشاعر زهير بن أبى سلمى ، يشبه ناقته بالسفينة المملوءة (المشحونة) التى أطاع الريح شراعها السريع ، فهو يقول بأن امتلاء السفينة أقوم لسيرها ، وأن ناقته إذا ولت مسرعة فإنها أشبه بالسفينة الممتلئة السريعة .

وإن أدبرتْ قلتَ مَشْحُونةٌ أطاعَ لها الرّيحُ قِلْعاً جَفُولاَ[٢٠]

والشاعر « المسيَّبُ بنُ عَلَس » ، واسمه زهير بن علس ، وهو من الشعراء المقلين فى الجاهلية . وله قصيدة يمدح بها « القعقاع بن معبد بن زرارة » أحد كبار بنى تميم الأثرياء الكرماء . ويصفه المسيب بأنه أكرم من خليج ممتلئ تتوالى فيه الأمواج وتتدافع . « وشبه أمواج الخليج بخيل بلق ، لأن الموجة إذا ارتفعت كان ظهرها أبيض ، فإذا انقلبت اسود بطنها أى يرمى الخليج بالموج دوالى الزراع » (السواق) . هذه صور بحرية يقدمها الشاعر سريعة متدفقة كما يفعل الخليج بأمواجه الفياضة المتدفقة وحركتها السريعة حتى لتغمر الشواطئ والسواق ، فى هذين البيتين :

ولأَنْتَ أجْوَدُ من خَلِيجٍ مُفْعَمٍ مُتَرَاكِمٍ الآذِيِّ ذى دُفَّاع
وكأَنَّ بُلْقَ الخَيْلِ فى حافاتِه يَرْمِى بهِنَّ دَوَالِىَ الزُّرَّاعِ[٢١]

ويذكر الشاعر المَخَبَّلُ السَّعْدِىُّ ، سمك القرش (اللخم) ، فى قصيدته التى تصور رحيل المحبوبة السريع وجمالها ، وخفتها فى قلة عظامها كأنها سهم دهن صدره بالزيت ليعزله عن موج البحر وينطلق من البحر ذى الأمواج العالية (ذى غوارب) المملوء بسمك القرش .

أَغْلَى بها ثَمناً ، وجاء بها شَحْتُ العِظَامِ كأَنَّهُ سهم
بَلبَانِه زَيْتٌ ، وأَخْرَجَها من ذى غَوارِبَ وَسْطَهُ اللُّخْمُ[٢٢]

---

(٢٠) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠ ، البيت رقم ٢١ ، ص ٥٨ .
(٢١) المفضليات ، قصيدة رقم ١١ ، البيتان ٢٠ و ٢١ ، ص ٦٣ .
(٢٢) المفضليات ، القصيدة رقم ٢١ ، البيتان ١٤ و ١٥ ، ص ١١٥ .

أما المرقش الأكبر ، وهذا لقبه ، واسمه عمرو بن سعد بن مالك ، فإنه يقترب من تصوير طرفة بن العبد لرحيل الظعن أو الهوادج النسائية المحمولة على الإبل وتشبيهها بالسفن العظيمة الطافية وبأشجار الدوم أيضاً . فيقول فى مطلع قصيدة له :

لِمَنِ الظُّعْنُ بالضُّحَى طَافِيَاتٍ شَبْهُهَا الدَّوْمُ أو خَلايَا سَفِينِ[٢٣]

وللمرقش الأكبر قصيدة أخرى يشبّه فى أحد أبياتها ناقته بالثور الوحشى ، ويحفل البيت كله بالتشبيهات والصور المركبة ، فالناقة كالثور الوحشى والسوط الذى يدفع الثور (الرباع) إلى الجرى كالمجداف الذى يحرك السفينة ويجرى بها ، ثم يدمج المجداف والسفينة والسوط والثور فى كلمة واحدة هى « الزلم » أى قدح الميسر ، فيقول إن الناقة تجرى بالسوط مثل السفينة عندما يحرك مجدافها ، وهما فى عدوهما أشبه بعدو الثور المفرد ، أى الذى أفردته خشية القناص ، ويقدح الميسر :

تَعْدو إذا حُرِّكَ مِجْدَافُها عَدْوَ رِبَاعٍ مُفْرَدٍ كالزُّلَمْ[٢٤]

وشبه المثقب العبدى ناقته ، عندما يرتفع عليها أدوات الرحل ، بالسفينة طويلة الظهر (القرواء) السابحة المدهونة وهى تشق الماء بصدرها (جؤجؤها) ويعلو مع ارتفاع أمواج البحر المرتفعة على المدى البعيد . فالشاعر يذكر هنا تركيب السفينة ودهانها ، ومعروف أن العرب كانوا يدهنون سفنهم بزيت السمك .

كأن الكُورَ والأَنْسَاعَ فيها على قَرْوَاءَ ماهِرَةٍ دهِينِ[٢٥]
يَشُقُّ الماءَ جُؤْجُؤُها ويَعلو غَوارِبَ كلِّ ذى حَدَبٍ بَطِينِ

ونكتفى بهذا القدر من صور وتشبيهات أدب البحر فى المفضليات ، لنتابعها فى الأصمعيات .

الأصمعيات هى تكملة للمفضليات حتى أسماها العلامة الشنقيطى « الأصمعيات التى أخلت بها المفضليات » ، فبناها على نمط المفضليات ، إذ اختار الأصمعى مجموعة مماثلة من

---

(٢٣) المفضليات ، القصيدة ٤٨ ، البيت الأول .
(٢٤) المفضليات ، القصيدة ٤٩ ، البيت ١٠ ، ص ٢٣٠ .
(٢٥) المفضليات ، القصيدة ٧٦ ، البيتان ٣٢ و ٣٣ .

أفضل قصائد الشعر الجاهلى ، غير أن عددها أقل من المفضليات (٩٢ قصيدة) ، كما أن قصائدها أقصر من قصائد المفضليات . والأصمعى هو أبو سعيد عبد الملك من علماء اللغة ورواة الشعر والأنساب ، من أهل البصرة ، جاء بغداد بعد استدعاء الرشيد له . « وكان الرشيد قد استقدمه على دواب البريد ، لما بلغه من علمه وفضله واتساع درايته للغة ، وروايته لأنساب العرب وأيامها وأخبارها وأشعارها وأرجازها[٢٦] . وقد صدرت الأصمعيات فى طبعة حديثة عن دار المعارف بمصر « وحققها أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، وهى مصدرنا فى هذا الفصل .

فى الأصمعيات نجد « سهم بن حنظلة » وشهرته « رجل من غنى » ، يصوّر المد فى الخليج تصويرًا واقعيًّا ، فالخليج فى المد شديد الامتلاء بالمياه (تأقا) ، والأمواج العالية بالغة الارتفاع :

مدَّ الخليج ترَى فى مَدِّهِ تَأَقًا وفى الغَوَارِبِ من آذِيِّهِ حَدَبا[٢٧]

وفى مجال الفخر ، ينشد الشاعر سَلامةُ بنُ جَنْدَلٍ قائلا :

فعِزَّتُنا ليست بِشِعْبٍ بِحرَّةٍ ولكنها بَحْرٌ بصحراء فَيهقِ[٢٨]
يُقمِّص بالبُوصىِّ فيه غَوارِب متى ما يَحْضُنْها ماهرُ اللُّج يَغْرقِ

فينفى عن عزتهم المحدودية والضيق كالطرق الجبلية ، ولكنها واسعة كبيرة كبحر فى صحراء مترامية الأطراف – وفى هذا البحر تحرك الأمواج العالية السفن فوق مياهه الممتدة بلا انتهاء ، التى يغرق فيها الصباح الماهر .

ويرد ذكر البحر والسفن فى كثير من قصائد المفضليات والأصمعيات ، بدون أن يقترن بالصور الواقعية لعالم البحر والأمواج والسفن . مثل هذا البيت الذى يرد فى قصيدة للشاعر الجاهلى الممزق العبدى :

أكَلَّفْتَنِى أدواء قوم تَرَكْتُهمْ والاَّ تدَارَكْنِى من البحر أَغْرَقِ[٢٩]

(٢٦) الأصمعيات ، ص ١١ .
(٢٧) الأصمعيات ، القصيدة ١٢ ، البيت ٢٩ ، ص ٥٦ .
(٢٨) الأصمعيات ، القصيدة ٤٢ ، البيتان ٣٠ و ٣١ ، ص ١٣٦ .
(٢٩) الأصمعيات ، القصيدة ٥٨ ، البيت ١٧ ، ص ١٦٦ .

وتتكرر فى قصائد الشعر الجاهلى ودواوينه الكثير من صور البحر وأمواجه وسفنه وظواهره وطرقه الملاحية على النحو الذى سبق ذكره . ونلاحظ أنها ترد كأبيات من القصيدة الجاهلية ولا توجد قصائد بحرية جاهلية كاملة بسبب النظام السائد فى قصائد الشعر الجاهلى .

غير أنها تشكل الملامح الأولى لأدب البحر عند العرب . تلك الملامح التى أخذت فى التعمق مع التقدم العربى فى البحار والمحيطات . فتقدمت تلك الصور البحرية الواقعية من الشعر الجاهلى إلى قصص التجار العرب مع نمو حركة التجارة العربية بعد ظهور الإسلام . ونما أدب البحر العربى شكلا وموضوعًا ، كمًّا وكيفًا ، من الملامح الأولى الواردة فى الشعر الجاهلى إلى الرواية العربية الحديثة ، أى من شكله الأول البسيط إلى أشكاله الأخيرة المركبة من الفن الروائى ، مرورًا بقصص التجار العرب ، وفن الحكاية الشعبية والأساطير البحرية ، فأدب المرشدات البحرية وأدب الرحلات البحرية . ونستطيع أن نلمح فى الشعر الجاهلى البذور الأولى لبعض هذه الأشكال الأدبية والفنية والعلمية من أدب البحر العربى . وسنمضى فى رحلتنا مع تلك الأشكال المختلفة لأدب البحر عند العرب ، فنتناول فى الفصل التالى قصص التجار العرب ، الذين جابوا البحار والمحيطات ، منذ العصر الجاهلى وحتى القرون الوسطى طلبًا للتجارة والرحلة والعلم .